المحاضرة السابعة - الفرد والهوية:

المطلب الاول - مفهوم الهوية وتعريفاتها:

إن مفهوم الهوية هو مفهوم فلسفي في منطلقه الأصلي، كون موضوع الفلسفة الأول حسب أرسطوAristote يتناول الوجود الإنساني بما فيه من ثابت وجوهر، فالوجود الثابت عنده هو الهوية لأنها ما تعلّق ببقاء ذات الفرد واستمرارها في ظل مختلف التغيرات.

وقد أكد الفارابي ذلك في قوله بأن الهوية هي كلمة اشتقّها العرب من الهو لينقلوا بواسطتها المعنى الذي تؤديه كلمة "استين" باليونانية، أي فعل الكينونة في اللغات الهندوأوربية الذي يربط بين الموضوع والمحمول، ثم عدلوا عنها و وضعوا كلمة الموجود مكان "الهو" والوجود مكان "الهوية"، لذلك نجد ابن رشد لا يفرق في حديثه بين الوجود والهوية فيقول:" وإذ قد تبين أن اسم الوجود يقال على أجناس المقولات،فبّين أنّ الأول الذي ينطبق عليه من هذه اسم الموجود والهوية بإطلاق هو الشّخص القائم بذاته وهو سؤال عن الجوهر ودليل عليه" ولعل ابن خلدون قد استطاع أن يبرر هذا المعنى أكثر وضوحا بقوله في المقدمة "بكل شئ طبيعة تخصه"، وعلى هذا فانتفاء خصوصية الشيء هو انتفاء لوجوده ونفيه.

الهوية من المفاهيم القديمة قدم الوجود الإنساني في المجتمعات التي تميزت بالاستقرار السياسي والاجتماعي،من خلال تصنيف الجماعات لنفسها وتحديد سمات هويتها،في حين بدأ التنظير لها في ستينات القرن الماضيلارتباطها بممارسات الدولة.ويتحدد مفهوم الهوية من خلال الدلالات اللغوية و الاصطلاحية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية المرتبطة به.

- ✓ **فعلى الصعيد اللغوي**: يشتق المعنى اللغوي لمصطلح الهوية من الضمير هو، أما مصطلح الُهو فهو " المركب من تكرار هو" فقد تم وضعه كاسمٍ معّرفٍ بـأل ومعناه الاتحاد بالذات،وهو ما يتفق مع معنى الكلمة باللغة الفرنسيةidentité المشتقة من الأصل

اللاتينيidentitatوالتي تعني التّمايز أو الفردانية. وتشير هوية الشيء في اللغة العربية إلى حقيقته المطلقة.

- أمّا **_على الصعيد الاصطلاحي_**:

فقد تعّددت أبعاده وتقاطعت اختصاصاته بين فروع العلم وفيما يلي بعض محاولات تعريفه في ضوء بعض فروع العلم :

- **_المدرسة الانثروبولوجية_**:

تستأثر هذه المدرسة بمعظم الدراسات المتعلقة بالهوية فنجد أن جون دي فوان عرفها بأنها إحساسبالانتماء الاجتماعي وتعني الولاء الأخير له،وأن العضوية في جماعة معينة يحددها العرق والإقليم والأوضاع الاجتماعية والثقافية والدين والقيم الجمالية واللغة المميزة لهذه الجماعة.كما يرى أندرين أن الهوية هي العضوية في المجتمع السياسي.ويعرفها انشتاين بأّنها معرفة الإنسان لنفسه بصورة محددة في مواجهة الآخرين.

وقد عرفت بعض دراسات هذه المدرسة الهوية بأنها وحدة كلية شاملة ينطوي تحتها الإنسان كجزء مكون للهوية التي تمثل طموحات أعضائها،فالهوية الجماعية في مواجهة المصالح الفردية لأعضاء هذه الجماعة،بل وفي اتجاه الأمم الأخرى

- **_المدرسة النفسية:_**

تِعّبر الهوية عندهم عن عملية تقع في مركز معتقدات ونفسية الإنسان وثقافته الاجتماعية ،حيث يستطيع من خلال الجماعة القيام بالتقييم الذاتي في مواجهة الآخرين،أي أنها تِعّبرعن عملية ادراكية تتعلق بتقييم متبادل بين الفرد والآخرين،ولهذا توجد الهوية العامة والهويات الفرعية.

- **_في علم الاجتماع:_**

يرى علماء الاجتماع أن الهوية تعبر عن السمات والمواقف المشتركة وأبعاد التشابه التي يمكن أن يجتمع حولها أعضاء جماعة ما. وهي التي يمكن ان تعبر عن الانتماء للوطن،أو لدين،أو لثقافة أو لأسرة أو لمركز اجتماعي لذا فهي تُفرَض من المجتمع محددة سلوكيات الأفراد،بل يمكن من خلالها التنبؤ بسلوكياتهم لأنها تتكون من عناصر ثابتة موروثة وأخرى متغيرة.

المطلب الثاني - نظرياتالهوية:

1. نظرية التهديد:

يعتبر موضوع الهوية محل جدل بين أطراف كثيرة، بعضها معنيٌّ به من باب المسؤولية الوطنية أو القومية والغيرة عليها نتيجة ما نلمسه في هذا العصر من محاولات فرض هويات بعينها مما يهددها بالذوبان أو الاضمحلال،وهذا التهديد قد يكون واقعيا آنيا وقد يكون مفتعلا (سياسة المؤامرة) ،وقد يقبع في مخيلة الأفرادوالجماعات،وسواء كان هذا التهديد فرديا أو جماعيا.وقدوقفت نظرية "التهديد الجماعي مقابل التهديد الفردي"عند الاعتقاد الذي يكون لدى أعضاء إحدى الجماعات من كونهم مهددين أو مستهدفين من طرف جماعات أخرى معتبرة إياه مفتاحا أساسيا في تفسير نشأة الاتجاهات التعصبية،كون الخصومات الجماعية لها التأثير الأكبر في ذلك إذا ما قورنت بالخصومات الشخصية،مثال ذلك قيام اسبانيابطرد مئات الآلاف من مواطنيها من ذوي السوابق المسلمة سنة 1609"وهو ما يميز النفور والتراوح بين هوّيات متعددة ومتباينة.

2. نظرية الهوية الفردية :

هي النظرّية التي وضعها العالم أريكسون حول كيفية تعّر ف الفرد على هويتِه، واهتّم بدراسة الهوية بالاعتماد على علم النفس، وتَعتبر هذه النظرية أنّ الهوية لا تتكون نتيجةً لعوامل اجتماعية فقط؛ بل تعتمد على العديد من العوامل الأخرى،والتي تهتّم بدراسة السلوك النفسي للأفراد، وكيفّية تأقلمهم مع المجتمع الذي يوجدون فيِه، وخصوصاً عند انتقالهم لمجتمعات جديدة،فيُرغمون على تغيير هويتهم،

والمقصود بالـهوّية هنا ليست بطاقة التعريف الشخصي لكل فرد،بل طبيعة التصرفات،وبعض العادات،أو اللغة،ممّا يؤدّي إلى تحقيق معنى الاندماج مع البيئة المحيطة بالأفراد.

3. نظرية الهوية الاجتماعية:

نظرية الهوية الاجتماعية،تقترح تصنيف البشر في فئات إما أنهم مفضلون؛لأنهم يدعمون هوية الجماعة أو المجتمع،أو غير مفضليناأنهم مختلفون. فعملية تحديد الهوية هذه تكون معنية بالفرد أو بالجماعة على حد سواء. لذا،وفي ظل ظروف محددة،يتم النظر إلى الأفراد على اعتبار أنهم يمثلون جماعات،وليس باعتبارهم شخصيات متفردة. (بالطبع لا يوجد هوية شخصية بمعزل عن الهوية الاجتماعية)، كما تقترح النظرية بعد أن يتم التصنيف،تحديد الاختلافات في داخل الجماعة على أنها أقل من تلك الاختلافات داخل الجماعة وخارجها. فمعايير وأنماط الجماعة من الداخل (التي تحظى بتفضيل عام) تؤدي إلى إجراء مقارنات محددة لضمان التحسن الذاتي. كما أن من العلماء من صنف نظريات الهوية إلى قسمين عالمية و تاريخية،فالنظريات العالمية - حسب جورج لارين في كتابه الايدولوجيا والهوية الثقافية،ترجمة فريال حسن خليفة - تبحث في اعتبار الآخر من منطلق الذات العقلية الأوربية والاتجاه نحو تطبيق نموذج عام يفترض حقيقته المطلقةالخاصة.

لذلك يردكل الاختلافات الثقافية إلى وحدته الخاصة،مما قد يؤدي إلى اختزال خصوصية الآخر و إهمالها،بينما النظريات التاريخية تبحث عن "الآخر" من اعتبار التفرد والوضع الثقافي الخاص،ولهذا تؤكد النظريات التاريخية على الاختلاف وعدم التواصل،مما يؤدي ربما إلى بناء الآخر بوصفه أدنى. مما يخلق إشكالات جادة،لأن النظريات العالمية لا تقبل الآخر ولا تستطيع الاعتراف باختلافاته أو قبولها، والنظريات التاريخية ربما ترفض الآخر بسبب أنه مركب أو مبني بوصفه موجودا مختلفا أدنى. وهما يختلفان معا في تصورهما للتاريخ والهوية الثقافية ومن المفارقة أن التأكيد على الخصوصية التاريخية يؤدي إلى تصور الهوية الثقافية بشكل لا تاريخي بوصفها جوهرا أو ماهية أو روحا ثابتة،غير أنّها تقبلها

كعملية بناء و إعادة بناء،كون الهوية هي من تصنع التطور الاجتماعي و الخصوصية الحضارية لذلك نجد أن محاولات الدول الاستعمارية عبر التاريخ لطمس أو مسخ هوية الشعوب المستعمرة باءت بالفشل لأنها قوبلت بتزايد تمسك هذه الشعوب بهويتها وتكريسها في أبنائها أكثر و أفضل لأن الوظيفة الأساسية للهوية هي صياغة الكيان المجتمعي في أطر تحقيق الوحدة الوطنية والعقدية والمصير المشترك.والعكس صحيح،لأن عدم ربط المجتمعات بهويتها يجعلها تعيش فوضى اللااستقرار الاجتماعي والسياسي وحالات اللاتوازن النفسي،فلا بد من وجود تناغم واتساق بين الجوانب الاجتماعية للمجتمع وبين هويته.

4. نظرية القومية:

الاهتمام بموضوع القومية لم يبدأ إلا في حدود العقد الرابع من القرن العشرين تبعا لكتابات "المدخل عن النزعة القومية"لهانس كوهن HANS KOKN، وقد ارتبطت هذه النظرية أكثر بالفكر السياسي القومي حيث بقدر ما كانت القومية مصدر خير ونتائج ايجابية لبعض المجتمعات، كانت وبالا وخبالا وحزنا على مجتمعات أخرى وهو ما تطالعنا به نشرات الأخبار عبر العالم كل يوم، من دمار للحضارات وإزهاق لأرواح الأبرياء بدعوى الطائفية والقومية العمياء أيا كانت منطلقاتها أو أهدافها ووسائلها. ما حرك أقلام وعقول كثير من المفكرين والعقلاء بعدم جعل الهوية القومية خنجرا نطعن به ذواتنا وأحباءنا ومن نتشارك معهم المصير والتاريخ ،الأمر الذي دعا دادلي سيرز SearsDudley في أوائل عقد الثمانينات من القرن العشرين للقول أن "هذه النزعة كانت شرا واضحا،مغروسا عند جذور الحرب،فقد أدت النزعة القومية المتعصبة إلى حربين مرعبتين"، وهي تشهد تصاعدا منذ أوائل القرن الحادي والعشرين لا يستثني أي مجتمع ولا أي انتماء لا عرقي ولا ديني واستفحال تمّرد الأقليات في المجتمعات الموحدة المتعايشة بسلام للمطالبة بالاعتراف بهويتها القومية سواء كان ذلك مزاعم مشروعة أم لا والبحث عن تأسيس الدويلات المتناحرة (خاصة في الدولالإسلامية أوالعربية في شكل صراعات طائفية أو ربيع عربي كما أطلق عليه)

بدعوى القومية في ظل التكتل الغربي الأوربي، ما يساهم في إحداث تحول تاريخي واجتماعي وسياسي وخاصة ثقافي بارز.

كما تجدر الإشارة إلى أن للهوية مستويات متعددة وأبعاد متداخلة ومتفرعة،فهناك هوية أساسية محورية وهويات ثانوية فرعية (المتعلقة بمختلف الانتماءات)،ونتيجة التغير الثقافي أو الاجتماعي قد تصبح الهويات الثانوية محورية عبر الزمن أو حسب ضرورة الوجود الاجتماعي كون الإلحاق الثقافي بتطورات الحراك الاجتماعيسوف يعيد إنتاج أزمة الهوية الثقافية.

المطلب الثالث - الهوية الثقافية :

أ- تعريف الهوية الثقافية:

توضِّح الهوية الثقافية العلاقة بين الفرد ومحيطه الثقافي وهي تتركب من كل أو بعض الهويات الاجتماعية ، السياسية، التاريخية، اللغوية، الدينية حسب المرجعيات الظروف المتعلقة بكل مجتمع بعينه.حيث تمثل الهوية الثقافية مجموعة من السمات الثقافية التي تميز أفرادا في مجموعة ما عن غيرهم ، من خلال منظومة نفسية أو قيمية أو تاريخية أو اجتماعية التي تتفق عليها المجموعة،والتي تعكس الثقافة السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه. والهوية الثّقافية حسب والتر مايكلز WalterMichaelsهي الطريقة التي يعيش بها الناس حياتهم في وقت معين،إنها غير منتجة بل إنه من المستحيل في الواقع تأسيس هوية خارج هذا الإطار التجريبي الُهوية الثقافية فهي كيان خاضع للتغير وليس معطى نهائي،فهي تتطور إما سلبا في طريق الانكماش،أو إيجابا في طريق التمثل و الانتشار،بتمثُّل تجارب المجتمعات الأخرى الثقافية من خلال عمليات الاحتكاك والتّماس الثقافي،ومن خلال عمل نظرية وإيديولوجية التعددية الثقافية في توافقها وتجانسها تخلق مجتمعا فاعلا ومتطورا ومؤثرا،مما يجعل التعددية الثقافية عامل قوة لمجتمع ما حينما يعي تلك الميزة المتفردة.

ب- عناصر الهوية الثقافية:

1. **<u>عناصر تاريخية:</u>** منها الأحداث التاريخية المشتركة،الأصول التاريخية المكّون للهوية الثقافية، فهي تختلف من مجتمع لآخر ومن حقبة زمنية لأخرى...
2. **<u>عناصر نفسية ثقافية:</u>** منهاالاتجاهات النفسية الثقافية ،الذات الثقافية،السمات النفسية التي تحدد الفرد بشكل طبعه وانتمائه الأصيل،رغم أنها سابقة في وجودها وجود الفرد وان كانت ملازمة لثقافته الخاصة.
3. **<u>عناصر بيولوجية</u>**: انطلاقاما هو مشترك من الوراثة والسلالة (العرقية- الثقافية)، وهي نفسها غير قابلة للتغير كونها محددة بشكل ثابت..
4. **عناصر مادية:** أشكال التعبير الثقافي الملموسة والآثار الثقافية المشتركة،نمط العيش...
5. **عناصر اجتماعية**: منها منظومة القيم الثقافية،المعايير والعادات الجمعية،الأدوار الاجتماعية التي تحدد الُهوية الاجتماعية الأساسية "العرقية الثقافية" لأنّ الانتماء للمجموعة العرقية هو أوِّل الانتماءات الاجتماعية،وتقوم الجماعة بنقلها لأفرادها،فيصبح اكتسابهم الهوية الثقافية عبارة عن تحصيل حاصل.

ج. مستويات الهوية الثقافية:

تتحرك الهوية الثقافية ضمن علاقات متبادلة،أومستويات ثقافية كما يلي:

هوية الفرد داخل الجماعة ← هوية الجماعة داخل المجتمع

1. **<u>المستوى الفردي (الهوية الفردية)</u> :**

وهو الاتجاه الذي محوره الأساسي الفرد وتقييمه لذاته ولغيره وسلوكه ضمن نسق ثابت نسبيا من موقف لآخر،وهويشير إلى ثقافة كل فرد من أفراد المجتمع بصفته الشخصية من خلال نظريات الشخصية المستمدة من المدرسة النفسية.

2. **<u>المستوى الجماعي (الهوية الجماعية)</u>:**الهوية الجماعية هي ما يتصوره المجتمع عن نفسه في أطار مرجعيته التاريخية والاجتماعية ونظمه السياسية،تُسهم العادات والتقاليد المشتركة واللغة في تغذيتها والمحافظة عليها من الاندثار أو التحويل، بل تسهم الهوية الجماعية في حماية وتعزيز الهوية الفردية حيث يرى موريس هالبواكس Maurice Halbwachsفي كتابه <u>الطابع الاجتماعي للتذكرالفردي</u> الصادر عام 1925 ربط هالبواكس في دراساته حول الذاكرة الجمعية الذكريات الشخصية للفرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه،واعتبر أنّ الإطار الاجتماعي والذي تنشِه ثقافةُ مجتمع ما،يسهر على وضع نسق جمعي يجعل الخبرات الفردية قابلة للتذكر و للتفسير، فلمتعد الذكريات الفردية إذن متمركزة ومنحصرة في داخل الفرد بل أضحت تملك مكانا لها ضمن المنظومة الاجتماعية كنتيجة لتفاعل هذا الفرد مع محيطه الاجتماعي.

أماسبنسر فقد قدّم نموذجا للهوية الجماعية بناء على منطلقين:

- المنطلق الثقافي:يقوم على تفاعل العوامل الثقافية وأفراد المجتمع.
- المنطلق التاريخي:يتسم بالثبات والاستمرارية

المطلب الرابع- العلاقة بين الثقافة والهوية:

يذهب البعض من جهة إلى تحديد العلاقة بين الثقافة والهوية على أساس أن الثقافة هي التي تشكل الهوية،هي الّتي تعطي الاسم والمعنى والصورة،وهي التي تجعل من جماعة ما متميزة أو مختلفة غيرها من الجماعات. من جهة أخرى،يعتقد البعض الآخر أن الهوية أعمق من الثقافة وأبقى وأوسع،وأن الثقافة هي تعبير عن الهوية وتجِلّها وهما في حالة تأثير ايجابي متبادل بينهما،فالعلاقة بينهما حيَّة ومتواصلة،ولكن ليس إلى درجة أن يعطى انطباع أو تصور أنَّ الثقافة هي الهوية،أو هي المكون أو المقوم الرئيسي لها،وإنما الثقافة تشكل جزء من مفهوم الهوية وليس كله. لأنّ ثمَّة علاقة وثيقة بينهما،إذ ما

من هوية إلا وتختزل ثقافة فالثقافة في جوهرها وعمقها هوية قائمة الذات،وقد تتعّدد الثقافات في الهوية الواحدة،كما أنه قد تتنّوع الهويات في الثقافة الواحدة،وهو ما يعبر عنه بالتنوع في اطار الوحدة،فقد تنتمي هوية شعب من الشعوب الى ثقافات متعددة تمتزج عناصرها و تتلاقح مكّوناتها فتتبلور في هوية واحدة ،مثال ذلك الهوية الإسلامية مما يجعلها هوية إنسانية عالمية منفتحةوبالتالي يوجد ارتباط وثيق بين الثقافة والهوية إذ يمكن للثقافة أن تعمل بدون وعي للهوية،بينما يمكن لاستراتيجيات الُهوية أن تّعٍدل أو تغّير من الثقافة الموجودة،فهي علاقة بين الذات الإنسانية وإرثها الثقافي.